أدب عباسي : قضايا ونصوص

مقدمـة:

يعد العصر العباسي أطول العصور المعروفة في التاريخ العربي الإسلامي ، لأنه دام أكثر **من خمسة قرون متعاقبة** بدءا من سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ إلى سقوط بغداد سنة (656هـ)، حيث أفلت شمس الخلافة العباسية نهائيا، بعد أن كان الوهن قد خلخل بناءها من قبل. يعتبر هذا العصر أزهى العصور العربية الإسلامية، ازدهارا وتوسعا في مجالات الحضارة والثقافة المختلفة. ويمكن تقسيم الحقبة العباسية إلى أربعة عصور متعاقبة:

1/- العصر العباسي الأول:

بدأ منذ قيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية في سنة (132هـ)، وامتد إلى حدود سنة(232هـ)، وهي السنة التي تولى فيها المتوكل مقاليد الخلافة، ويعتبر العصر العباسي الأول العصر الذهبي... من حيث استقرار أوضاع الحكم فيه وهيبة الخلافة، وقدرة الخليفة على فرض سلطته الشرعية. وقد ظهر في هذا العصر عدد من العلماء الرواد الأوائل، في مختلف فروع العلم والمعرفة آنذاك؛ **ففي الفقه والتشريع**: ظهر من الأئمة الأربعة الأجلاء: الإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أبو حنيفة، و الإمام أحمد بن حنبل. **وفي علوم اللغة والنحو**: برزت أسماء لامعة منها : أبو عمرو ابن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، والكسائي، والأصمعي، وعيسى بن عمر، والفراء..... واشتهر **في رواية الشعر وجمعه ونقده**: المفضل الضبي، وحماد الراوية، وأبو عمر الشيباني، وابن سلام الجمحي، وابن الأعرابي. **أما الشعراء**: فقد كانوا من الكثرة بما يصعب معه إحصاؤهم وأشهرهم: أبو العتاهية، وبشار بن برد، وأبو تمام، وأبو نواس. بينما بزغ في **مجال النثر الفني** أشهر علمين في الكتابات النثرية وهما: عبد الله بن المقفع، والجاحظ. إلا أن معظم آثار أولئك الرواد الأوائل العظام قد ضاعت، أو اختفت، ولم يصلنا منها سوى اليسير...

2- العصر العباسي الثاني

امتد هذا العصر أيضا مائة سنة كاملة، وقد بدأ سنة 232هـ بتولي المتوكل مقاليد الخلافة، وانتهى في سنة 334هـ باستيلاء البويهيين على مقاليد الحكم في بغداد. وفي هذا العصر ازدهرت الحركة الأدبية والعلمية، وظهر جيل من كبار العلماء، الذين أضفوا على هذه الحركة صبغة التنظيم المنهجي الدقيق؛ ففي علوم الحديث والفقه برزت أسماء لامعة منها: البخاري، ومسلم، وابو داود، والترمذي، والنسائي، والطبري، والبغوي، وعبد الله بن أبي داود السجستاني، والحسن بن زكرياء العدوي، ويحيى بن صاعد، وأبو بكر بن مجاهد، وأبو يعلى الموصلي.

وفي علوم اللغة والنحو، ظهر ابن درستويه، وابن دريد، والزجاج، والأخفش، وابن الأزهر... في حين اشتغل بالأدب والتأليف في هذا العصر ابن قتيبة، وثعلب، والمبرد. أما في الشعر فقد نبغ البحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، والصنوبري.

3/- العصر العباسي الثالث:

عرف هذا العصر بانتقال سلطة الدولة ومقاليد الحكم الحقيقي إلى البويهيين في سنة (334 هـ)، وانتهت خلافته سنة (447هـ). غير أن الثقافة العربية قد ازدهرت واتسعت اتساعا منقطع النظير. وقد كان سيف الدولة الحمداني من رجالات الدولة الكبار في هذا العصر. ولا أدل على ذلك من اقتران اسمه بأسماء أشهر شعراء العرب في التاريخ من أمثال: أبي الطيب المتنبي، وأبي فراس الحمداني.. وغيرهما. ومن أواخر مشاهير الشعراء في هذا العصر نذكر الشريف الرضي، وابن هانئ في الأندلس.

وفي مجال اللغة والأدب والنقد اشتهر علماء كثر منهم: ابن خالوية، وأبو الفرج الأصفهاني، وابن فارس، والأزهري، وأبو حيان التوحيدي، وابن العميد، والآمدي، وأبو هلال العسكري، والجرجاني، والثعالبي، وابن النديم، وغيرهم ممن أسهموا في إثراء المعرفة الإنسانية كلها، كابن سينا، والبيروني، والخوارزمي.

4/- العصر العباسي الرابع والأخير:

اتسم هذا العصر بالاضطراب السياسي والفتن والثورات والحروب. ولعله العصر المعروف بالغزوات الصليبية المتكررة على البلاد الإسلامية. وفيه اجتاح القائد المغولي جنكيز خان البلاد الإسلامية في حملة التتار، ثم أعقبه حفيده هولاكو بهجوم أكثر وحشية على البلاد الإسلامية. بدأ هذا العصر سنة (447هـ)، وهي السنة التي انتقلت فيها السلطة إلى السلاجقة، وسيستمر إلى حين سقوط بغداد على يد هولاكو سنة (656هـ)، لتصبح هذه المرحلة التاريخية القاتمة مرحلة شؤم ووبال ونكبة عظمى على الحضارة الإنسانية الرفيعة التي احتضنها العرب والمسلمون، وأناروا بشعلتها دروب الإنسانية نحو مدارج الرقي والكمال.

ورغم ما اتسم به ذلك العصر من اضطراب وعدم استقرار، ورغم ما وقع فيه من الفتن والثورات والحروب الكثيرة، فقد نبغ فيه كثير من العلماء والأدباء والشعراء..**ففي علوم اللغة والنحو والأدب،** اشتهر التبريزي والحريري والأنباري وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والأصفهاني.. و**في التاريخ وعلم التراجم** ابن عساكر وعز الدين بن الأنبر، وياقوت الحموي... **وفي علوم المنطق والفكر والفلسفة،** اشتهر ابن حزم، الغزالي، والشهرستاني، وابن عربي، وابن باجة، وابن طفيل، وابن رشد. **أما أشهر شعراء ذلك العصر فهم:** ابن الفارض، وابن مطروح، والبهاء زهير، وابن خفاجة، وابن سهل، وابن حمديس.

الظواهر الأدبية الجديدة في العصر العباسي

من أهم وأبرز ملامح الأدب والثقافة في العصر العباسي، انفتاحهما على ثقافات الأمم الأخرى، وهو ما انعكس إيجابا على مختلف ألوان الأدب والفكر والعلوم عند العرب. وقد انطبع هذا الاحتكاك بالتنظيم والدقة حيث صنفت الكتب وازدهرت العلوم، ونشطت الترجمة التي أضحت من أهم روافد الثقافة العربية.

ورغم النشاط الدؤوب الذي عرفته ترجمة كتب الفرس والهنود والإغريق (اليونان)، فقد ظل الشعر العربي محتفظا بطابعه العربي الأصيل، بعيدا عن التأثر بالثقافة الأجنبية.. ويعزى نشاط الحركة الشعرية إلى تشجيع الخلفاء والوزراء والولاة للشعراء، وبذل العطاء بسخاء عليهم. وبفضل هذا السخاء والتحفيز، واكب الشعر العربي مستجدات عصره حيث وصف الشعراء القصور العظيمة والرياض والبرك ومختلف مظاهر التمدن في العصر العباسي. ومن أجمل أشعار الوصف ما رصع به البحتري قصيدته الخاصة بوصف قصر الكامل المشيد من قبل المعتز بالله ابن الخليفة المتوكل.

ومن جهة أخرى، فقد أفضى هذا الرفاه الحضاري الذي تباهى الشعراء في وصفه، إلى انغماس كثير من الناس في اللهو والمجون، وقد دون الشعراء ذلك اللهو، وفي مقدمتهم الشاعر أبو نواس وابن الرومي الذي مزج وصف مظاهر الترف بكثير من المزاح والدعابة. أما المتنبي الذي خص شعره لمدح الخلفاء والأمراء والوزراء (سيف الدولة الحمداني، كافور الإخشيدي، عضد الدولة، ابن العميد...) فقد صدح صوته فملأ الدنيا وأقعد الناس إلى أن فتك به فاتك ابن الجهل الأسدي سنة (354هـ). ومن أبرز ملامح الشعر إبان هذا العصر التجديد في المعاني عن طريق المجازات والاستعارات والإكثار من المحسنات وهو ما طبع الشعر بالعمق الفلسفي والتعابير الغامضة الملتبسة. ومن الذين اشتهروا بهذا التوجه أبا تمام والمعري والمتنبي.

ويذكر المؤرخون أنه لم يكد ينتهي العصر العباسي الأول حتى نضجت مصنفات ضخمة من المعارف والعلوم والآداب من شعر، ونثر، وخطب وأمثال، ونوادر، وأخبار، وكان للشعر من ذلك كله الحظ الأوفر.

عرف الشعر العربي في هذه المرحلة تحولات جوهرية بدت واضحة في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه؛ في الأسلوب مثلا ابتعد الشعر عن الكلمات الغريبة، وعرف تركيبه عذوبة وسهولة وانسيابا وخيالا. واستحدث البديع، وعزف الشعراء عن المقدمات التقليدية كالمقدمة الطللية والخمرية والغزالية، وبالغوا في المدح والهجاء بأسلوب مفعم بالتشابيه الحسية والمجردة والاستعارات المكنية والتصريحية... وبهذا تولدت المعاني واقتبست الأفكار الفلسفية وطغت الدلالات الحضرية الجديدة في شعر بشار بن برد، وأبي نواس، وأبي العتاهية وابن الرومي. مما يبرهن على أن أثر الترجمة قد مس المعاني دون أن ينال من الهندسة الشكلية للشعر العربي القديم.

أما الأغراض الشعرية التي طالتها المبالغة في هذا العصر، فهي الخمرة ومجالسها، ووصف القصور والرياض والصيد، والتغزل بالغلمان، والمجون، والزهد في الحياة. وفيما يتعلق بالإيقاع الشعري، فقد نظم الشعراء قصائدهم على أوزان البحور القصيرة التي تم إبداعها كالمستطيل والممتد، وكثرت الموشحات والزجل.

لقد كان الشاعر الجاهلي والإسلامي يرسم ممدوحه في صورة مثالية تقدرها الجماعة، كما أن الخليفة يذكر بأعماله وصفاته الجليلة، وللمواقف والأحداث التي شارك فيها، والأبلغ في المدح عندما يشارك الخليفة في معركة ما ويحقق النصر، فتصور بطولته وترفع هامته، وقد انتشر غرض المدح في العصر العباسي كثيرا، إذ نجد الشعراء يصورون "المثل الخلقية صورا حية ناطقة. **ويعدو** الحصر ما استنبطوه من معان ظريفة في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس، وقد جسموها في الممدوحين تجسيما قويا، حتى لتصبح تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويجوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء".

لقد مدح الشعراء العباسيون الخلفاء والولاة، يصفون مثالية الحكم وما ينبغي أن تكون عليه، من أخذ من الشريعة والعدالة، وتقوى الله، التي تحدد إطار الحياة العامة للمسلمين،ومن ذلك قول مروان بن أبي حفصة في قصيدته للمهدي:

أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبي: حرامها وحلالها

وفيه يقول الحسين بن مطير:

يعف ويستحيي إذا كان خاليا كما عف واستحيا بحيث رقيب

ويقول أبو العتاهية في هارون الرشيد:

وراع يراعي الله في حفظ أمة يدافع عنها الشر غير رقود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقة ليست بدار خلود

وفيه يقول منصور النمري:

بورك هارون من إمام بطاعة الله ذي اعتصام

له إلى ذي الجلال قربى ليست لعدل ولا إمام

وقد تفرع عن هذا المدح الشعر السياسي، حيث يأخذ الشاعر موقفا خاصا به يدافع عن حق حزب من الأحزاب في الحكم وفي الخلافة، وهو اتجاه قد بدأ منذ وقعة صفين، وهيأ لبروز أحزاب الخوارج والشيعة. وبذلك يمكن القول إن القصيدة المادحة في هذا العصر قامت مقام الصحافة الحديثة، فهي توثق الأحداث والمواقف السياسية والأعمال الكبرى التي يقوم بها الخلفاء.

1) الشعوبية في الشعر العباسي ، بشار بن برد نموذجا

عندما جاء بنو أمية إلى الحكم في السنة الواحدة و الأربعين للهجرة عملوا على أن تكون حكومتهم عربية خالصة لا من حيث الخلفاء وولاتهم وقوادهم ولا من حيث التقاليد والعادات الاجتماعية. و قد تعصبوا للعرب دون غيرهم من الفرس و الروم، و اعتزوا بهذه العروبة، فتعالوا بذلك على الموالي و استضعفوا جانبهم، واعتبروهم أقل منهم شجاعة و خلقا و أدبا، و دونهم لغة و عرقا و دما، متناسين أن الإسلام جاء ليدعو الناس إلى محو التعصب لقبيلة دون أخرى أو لجنس دون آخر، و إلى المساواة الكاملة، مقرا أن لا فرق بين عربي و أعجمي، و لا بين أسود و أبيض إلا بالتقوى و العمل الصالح.

كان من النتائج الطبيعية التي تولدت من هذا الموقف الأموي، أن حز ذلك في نفوس الموالي، وملأ قلوبهم حقدا على بني أمية، حيث باتوا يشعرون، وهم الذين كانوا قبل الإسلام من أعظم الشعوب، بنوع من الخيبة و المهانة و الغبن، فتكون منهم حزب جديد يناهض بني أمية ، و يدعو

سرا لتقويض عرشهم و الإطاحة بحكمهم، ذلك هو حزب الشعوبية التي كانت تتجلى في مظاهر ثلاثة:

- ✓ **شعوبية سياسية** تهدف إلى بعث الملك الفارسي من جديد و تحث على السير وفقا للنظام الذي كان ساسة الفرس يطبقونه في مجتمعهم.
- ✓ **شعوبية دينية** تسعى وراء إحياء المجوسية و نبذ التعاليم الإسلامية.
- ✓ **شعوبية أدبية** أو اجتماعية تسخر من الأسلوب العربية في الشعر، و من البكاء على الأطلال، و السخرية من تقاليد المجتمع العربي نيلا من حضارة العرب، و تقليلا من شأنهم. فهذا إسماعيل بن يسار الفارسي مثلا يدخل على الخليفة هشام بن عبد الملك فينشده مفتخرا لا مادحا، فيقول :

إني و جدك ما عودي بذي خور عند الحفاظ و لا حوضي بمهدوم

أصلي كريم و مجدي لا يقاس به و لي لسان كحد السيف مسموم

أحمي به مجد أقوام ذوي حسب من كل قرن بتاج الملك معموم

من مثل كسرى و سابور الجنود معا و الهرمزان لفخر أو لتعظيم

أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا و هم أذلوا ملوك الترك و الروم

لا يخفى ما في هذه الأبيات من تبجيل لملوك الفرس و تعريض بغيرهم من الملوك، عربا كانوا أو عجما. فإذا تركنا العصر الأموي وجدنا الموالي في العصر العباسي أعلى مكانة و أقوى نفوذا، وكيف لا يكونوا كذلك و هم الذين قامت الدولة العباسية على أكتافهم، و هم بذلك يستحقون جزاء، و يحق لهم أن يجهروا بتعصبهم للفرس، وأن يعلنوا شعوبيتهم صراحة دون مداراة. فهذا الشاعر الضرير بشار بن برد يقول :

هل من رسول مخبر عني جميـــع العرب

من كان حيا منهم و من ثوى في الترب

بأنـــــني ذو حسب عال على ذي الحسب

جدي الذي أسمو به كسرى و ساسان أبي

هذا أبو نواس يسير في نفس الإتجاه، متخذا من المطالع الطللية في الشعر العربي وسيلة لتحقير العرب و السخرية من عاداتهم و تقاليدهم، و هو القائل:

دع الأطلال تسقيها الجنوب و تبكي عهد جدتها الخطوب
و خل لراكب الوجناء أرضا تحث بها النجيبة و النجيب
و لا تأخذ عن الأعراب لهوا و لا عيشا فعيشهم جديب
ذر الألبان يشربها أنـــاس رقيق العيش عندهم غريب
بأرض نبتها عشر و طلح و أكثر صيدها ضبع و ذيب

و هو القائل أيضا:

عاج الشقي على رسم يسائلـــه و عجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد
و من تميم و من قيس و لفهما ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر و لا صفا قلب من يصبو إلى وتد

كان بشار الشاعر المخضرم واللسان الناطق للشعوبية، يحط من قدر العرب، و يشهر بعاداتهم و تقاليدهم، و يفتخر بمجد الفرس و شجاعتهم و حضارتهم، فكان ينفخ في نار العصبية الجنسية، و يثير العداوة، و يحرك الأحقاد و الحفائظ. و كانت من موقفه هذا صرخة موجهة إلى الموالي يدعوهم فيها إلى الانتقام من العرب و ترك الولاء لهم، كقوله :

أصبحت مولى ذي جلال و بعضهم مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلـــــــــها أهل النعال و من قريش المشعر
فارجع إلى مـــــولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجـــــل الأكبر

لم يكن بشار ليخفي تعصبه للفرس و احتقاره للعرب حتى في حضرة الخلفاء، فقد سأله المهدي يوما عن أصله و بمن يعتد، فأنشد:

و نبئت قوما بهم جنة يقولون: من ذا؟ و كنت العلم

ألا أيـــها السائلي جاهدا ليعرفـــــني أنا أنف الـــــكرم

نمت في الكرام بني عامر فروعي و أصلي قريش العجم

إن النص الذي بين يديك نموذج من الشعر الشعوبي عند بشار بن برد حيث يتجلى موقفه المعادي للعرب و يظهر فيه ازدراؤه للحياة العربية التي لم تصل – في نظره – إلى مستوى الحياة الفارسية. و لعلك لاحظت أن الشاعر في النص قد جمع بين القديم و الجديد. إنه جدب في النص فدخل الموضوع رأسا دون افتتاحية طللية أو غزلية خلافا لما كانت عليه عادة الشعراء قبله، و لكنه حافظ على المضامين القديمة؛ إذ افتخر معتزا بنسبه العريق و شجاعة قومه، و هجا فعير بالضعة و الحقارة و سفالة المنزلة، وهي معان جاهلية قديمة كان ينهجها الشعراء في بابي الفخر و الهجاء، ولذلك اعتبر بشار بن برد برزخا بين القديم و الجديد في الشعر العربي.

2) الخمرة والمجون في الشعر العباسي

انتشر اللهو والمجون والخلاعة في المجتمع العربي الإسلامي على عهد الخلافة العباسية، وقد تسربت هذه المظاهر الاجتماعية الجديدة إلى جسد المجتمع العباسي، ولم ينج من آثارها حتى الأمراء والحكام والشعراء. ومن العوامل السياسية والاجتماعية التي ساهمت في تكريس ميولات المجون والبسط والشذوذ الأخلاقي الرغبة في الترويج والترفيه والتنفيس عن الأرواح جراء القهر العباسي وظهور النزعة الشعوبية، يضاف إلى ذلك ميل الخلفاء العباسيين إلى ذوي المواهب من عامة الناس في مجال التسرية والتسلية والإضحاك. وبموجب هذين العاملين اللذين أفرزهما التحول الحضاري في العصر العباسي، ازداد نشاط حركة اللهو والمجون فتجلى في مظهرين أساسيين هما الغزل بالمذكر وشعر الخمرة. وقد مثل هذه الحركة جماعة من الشعراء الماجنين أبرزهم والبة بن الحباب والوليد بن يزيد وأبو نواس.

عادت الخمرة فاستشرت في خلايا المجتمع العربي، وانبعثت اللواطة فتجسدت في الميل إلى الغلمان. وحين تلعب الخمرة بالرؤوس يسقط قناع الوقار والمروءة ويبرز الانحراف الذي لا يفرق بين الذكر والأنثى لتنعدم الفوارق بين الفتاة والغلام، الأمر الذي رفع الذوق الغلامي ونقص من قيمة القيان والجواري. ولا شك أن هذا التوجه المتهتك في الشعر قد أملته شروط التحول

الحضاري والنزعة الشعوبية بوصفها حركة صدرت عن جماعة من المتحدرين من أصل فارسي كان ديدنهم تمجيد حضارة الفرس والحط من قيمة الإنسان العربي إتلافا لمكارمه وضربا لهويته وأمجاده. وممن زكى المنزع الشعوبي في هذا العصر نذكر أبا عبيدة، وسهل بن هارون، والبيروني، وحمزة الأصفهاني، بينما تمت مناهضة هذا الفريق من قبل جماعة من اللغويين والنقاد العرب على رأسهم ابن قتيبة، والجاحظ، وابن دريد. ولئن انعكست الشعوبية سلبا على الواقع السياسي والاجتماعي إبان العصر العباسي فقد كان لها أثر إيجابي على المستوى الفني.

تميز أبو نواس بالذكاء والموسوعية والارتباط الوثيق بالمجتمع والحياة الفكرية لعصره. وقد أبدع شعرا يعكس اطلاعه الواسع على آراء فلسفية، وإبحاره في العلوم اللغوية والإسلامية، قال الجاحظ: "ما رأيت رجلا أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مع مجانبة الاستكراه". كما قال عنه أحد الرواه: "كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر وكان فحلا رواية عالما".

وقد أورد ابن منظور في كتابه "أخبار أبي نواس" أن أبا نواس قال عن نفسه: "ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الخنساء، فما ظنك بالرجال، وإني لأروي مئة أرجوزة لا تعرف". تتلمذ أبو نواس على يد ثلة من مشاهير العلماء والمحدثين، منهم: أبو زيد الأنصاري، وأبو عبيدة بن المثنى، وعبد الواحد بن زياد وأزهر السمان ويحيى القطان، وقد شهد له الكثير بعلو كعبه في النظم وعنه قال المبرد: "ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبي نواس". ووصف "أسلوبه الفني بالسلاسة وبعده عن التكلف"، وعنه قال محمد بن داود الجراح: "كان أبو نواس أجود الناس بديهة وأرقهم حاشية، لسنا بالشعر يقوله في كل حال، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره".

وإذا أجمع النقاد في تلك الحقبة على جودة شعره وبلاغة أسلوبه فإن ابن شرف القيرواني يختلف عن هؤلاء في حكمهم ويصف "شعر أبي نواس بالضعف وأنه نافق عند العوام كاسد عند النقاد".

ويعد أبو نواس بالإجماع من أعاجيب العصر العباسي الشعري، تميز بملكات شعرية بديعة، وتقوت بدراسته الطويلة للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة، وهو عالم دقيق بقوالب الشعر الجاهلي والإسلامي، وما أنتجه من قبله بشار بن برد وأمثاله من شعراء العصر العباسي الأول.

ويمكن إجمال الحديث عن شعر أبي نواس في اتجاهين اثنين:

ـ اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة، سالكا مسلك المدح والرثاء، محافظا على معايير الشعر القديم، ومن ذلك قوله:

أجارة بيتنا أبوك غيـور ومسور ما يرجى لديك عسير

وقوله في الأمين:

يا دار ما فعلت بك الأيـام لـــم تبق فيك بشاشة تستــام

ولكنه لم يكن يبالغ في وصفه لرحلته بالصحراء، بل كان يغوص في عمق المبالغة لما يجنح إلى المدح كقوله في الرشيد:

وأخفت أهل الشرك حتى إنـه لتخافك النطف التي لم تخلـق

وقوله أيضا فيه:

تلك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكــان

ومن مدائحه التي تتميز بالألفاظ العذبة الرشيقة المليئة بالخفة والنعومة ما قاله في الأمين:

أضحى الإمام محمـد للدين نـورا يـقـتـبـس

تبكي البـدور لضحكـه والسيف يضحك إن عـبس

من هنا نلحظ أن أبا نواس يعرف كيف يختار ألفاظه الشعرية وأرشقها وأخفها في النطق وأحلاها في السمع، حتى يظل قريبا من وجدان الناس جاريا على كل لسان. ولهذه الغاية كان يبتعد عن الغريب والوحشي من ألفاظ الشعر.

ـ في الاتجاه الثاني كان أبو نواس مجددا محدثا (انظر القصيدة النموذج: مالي بدار خلت من أهلها شغل)، حيث أبدع في الهجاء والغزل والمجون. وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف أن شعوبيته تختلف عن شعوبية بشار لأنه لا يقارن بين خشونة البدو وحضارة الفرس مثل ما يفعل بشار وغيره من الشعوبيين الآخرين، بل يماثل بين البداوة العربية والحضارة العباسية التي عرفت تحولا ملحوظا في مجال العمران والاجتماع. وبما أنه قد تأثر بهذا التحول، فإنه قد ترجمه في سلوكه

وشعره، إذ عكف على الخمر والمجون، وثار ثورة عاصفة وجموحة على الرسم والطلل والديار، داعيا إلى معاقرة الخمرة والتلذذ بنشوتها[1]، يقول:

إنما العيش سـمـاع ومـدام ونـدام
فـإذا فـاتـك هـذا فعلى الدنيـا سـلام

فلا حياة في رأيه بعيدا عن الخمرة والمجون، ولذلك راح يدعو للابتعاد عن وصف الأطلال وتعويضها بوصف الخمرة والمتعة وجمال الحياة في ظل شربها يقول:

لا تـبك ليلى ولا تطرب إلى هنـد واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها أجـدته خمـرتها في العين والـخـد
فالخمر ياقوتـة والكأس لؤلـؤة في كف جارية مـمشوقـة الـقـد
تسقيك من يدها ومن فمـهـا خـمرا فـما لك مـن سكرين من بـد.

وهكذا تصير الخمرة وفق منطق أبي نواس، مفتاحا للوجود، ومنبع كل الأسماء، ومحور تلاقي الذات والطبيعة، ومسبار أغوار النفوس، ومصدر الحلم وكشف المجهول وعبارة الحواجز والحدود، والتقاء الظاهر والباطن، يقول عن الخمرة:

عـاج الشقي على رسم يسائـلـه وعجت أسأل عن خمارة البـلـد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد ؟
كم بين نـاعت خمر في دساكرها وبين باك على نؤي ومنـتـضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقـة صفراء تفرق بين الروح والجسد

يبدو هذا المقطع الشعري مفعما بمعاني التهتك والانحراف عن السلوكيات الأخلاقية العامة للمجتمع العربي، وهي معان تعكس التحول الصريح في منظومة القيم الشعرية؛ إنها ثورة على التقليد ودعوة إلى الإبداع والتجديد. ومن ثم، يتكشف أن أبا نواس يتماجن ويمعن في التماجن دون أن يكون مهووسا ـ مثل بشار بن برد ـ بالمقاربة بين أمجاد العرب والفرس تكريسا للنزعة الشعوبية. وهذا يعني أن أبا نواس ـ حسب أدونيس ـ يشيد رؤيته للعالم بناء على "قناع المجون" حيث أضحت الخمرة "بؤرة التحولات" في شعره. بل إنها "الرمز ـ المفتاح" لاقتحام منجزه الشعري سيما وأنه أضفى عليها "قدرة التحويل، وقدرة الإبادة والإعادة"، النفي والإثبات"،

[1]ـ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. دار المعارف، ط18، 2008. ص

وساوى، بتماه مبالغ فيه، بين الخمرة والخالق في القدم والانتساب، فهي القديمة التي لا تنسب إلى شيء، بل كل شيء ينسب إليها، وهي أمومة البداية والنشوء، وهي كذلك المعاد. وهي، فيما بين النشوء والمعان، الحبيبة والحب[1]. فلا شك، أن هذا التصور الذي يعتنقه أبو نواس، وهو يحتفي بالخمرة، يرفع من قيمتها لدرجة تكتسب معها تلك النفحة "الصوفية" التي تجعل من عشقها عشقا مماثلا لعشق الخالق والتفاني في حبه.

هذه، هي ماهية الخمرة ـ بتعبير أدونيس ـ ولوجودها فعل "السحر الذي ينسجم مع ماهيتها، لأنها تمنح الحياة، وتؤالف بين الأشياء، وتوقف منطق الزمن الطبيعي، وتعلو بالروح، وتضيء الجوانب المظلمة من النفس والكون لأن كؤوسها حسب أبي نواس، مصابيح ونجوم وجنادب تقفز بين الفيء والعشب.

[1]ـ أدونيس، الثبات والمتحول، بحث في الإبداع والاتباع عند العرب. الجزء الثاني، دار الساقي، ط10، ص118.

قصيدة ***مالي بدار خلت من أهلها شغل نموذجا*** :

مالــي بدار خلــت من أهلــها شغـل ... ولا شجاني لها شخـص ولا طـــــــلل
ولا رســوم، ولا أبكــي لمنــزلـــة ... للأهـل عنها، وللجيـران منتقـــــــل
ولا قطعـت على حـرف مـذكـــرة ... في مرفقيـها ، إذا استعرضتـها ، فتـــل
بيداء مقفـرة يـومـا ، فأنـعتـــــها ... ولا سـرى بي ، فأحكيـه بها ، جمـــل
ولا شتوت بهـا عامــا ، فأدركنـــي ... فيها المصيف، فلي عن ذاك مرتحـــل
ولا شـددت بها من خيمــة طنبـــا ... جارى بها الضب والحربـاء والـــورل
لا الحـزن مني برأي العين أعرفـه، ... وليس يعرفنـــــي سهـــل ولا جبـــــل
لا أنعت الـروض إلا مـا رأيت بـــه ... قصرا منيفـا، عليـه النخـل مشتمـــل
فهاك من صـفتـي إن كنت مختبرا، ... ومخبـرا نفرا عنـــي، إذا سـألـــــوا
نخل إذا جليت إبـــان زينتـــــها، ... لاحـــت بأعناقـــها أعذاقهـــا النحـل
أسقاط عسجـــده فيهـــا لآلئـــها ... منضـــودة بسمـــوط الدر تتصـــل
أرخـت عقودا من الياقوت مدمجـة ... صفـرا ، وحمرا، بها كالجمـر يشتعـل
فلم تـزل بمـــدود الليل ترضـــعـــه ، ... حتى تمكـن في أوصالـــه العســـــــل
يا طيب تـلك عروسـا في مجاسدها ... لو كـــان يصلح منها الشـــم والقبـل
خلالــها شجـــر في فيئـــه نقـــــد ... لا يرهب الذئب فيهـــا الكبش والحمـل
إن جئـت زائرهـــا غنـاك طائرهـا ... برجـــع ألحنـــة في صوتـــها هـــدل
من بلبـــل غرد ناداك من غصـتـن ... يبكـــي لبلبة أودى بهـــا خبـــــــل
هذا فصفـــــه وقل في وصفه ستددا ... مدت لواصفـــــه في عمـــره الطـول
ما بين ربـــــع ولا رســم ولا طـتلل ... أقوى وبيني في حكـــم الهـــوى عمـل

3) أبو العتاهية أو ظاهرة الزهد في العصر العباسي

يخضع كل عصر لخصوصيات أوضاعه المادية وسلوكياته الاجتماعية. فإن طفحت ملامح الترف والغنى، سطعت في المجتمع ظاهرتين تترجم أولاهما اللهو والمجون والعبث وتعكس ثانيهما معاني الزهد والتقشف والرغبة عن ملذات الحياة. لكن ندرك أن الظاهرتين معا قد نتجتا عن ميولات ذاتية نحو الكشف عن البواطن والبوح عن الخفايا الدفينة والمشاعر الفياضة، ولئن قاد الانصياع للشهوات إلى التطرف والشذوذ في اعتناق رذائل الملذات، فإن التقشف في الحياة يقود إلى الزهد من أجل التحرر من أدران الجسد تطلعا نحو قيادة النفس إلى الاكتمال.

وعليه، فلئن عكس شعر أبي نواس مشاعر العبث في الحياة، باختيار قرار اللهو والمجون، فإن شعر أبي العتاهية، قد أفصح عن إحساسات تتوخى السمو بالروح. ولذا، فقد ابتعد الشاعر عن التأنق في العبارة والتصنع في الأسلوب تعبيرا عن الأبعاد النفسية العامة بعيدا عن الانزياح في الكلمة والانجراف إلى السياسة حتى اتصف شعره بالنزعة الشعبية، لأنه بالغ في الوضوح وأسرف في التبسيط إلى درجة الابتذال.

وإذا كان أبو العتاهية قد نحا منحى بشار بن برد، في السهولة والبساطة، فإنه تجاوزه، معتقدا أن لا سبيل إلى تحقيق شعر شعبي إلا بالزيادة في التبسيط لفظا ومعنى. وهذا ما يبرر مقولة أحد من أنشده أبو العتاهية بعضا من شعره: "لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية". فرد عليه أبو العتاهية قائلا: "والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدك فيها".

مميزات شعر أبي العتاهية

انتقل أبو العتاهية من شعر الخمرة والغزل إلى شعر الوعظ والزهد. وظل نحو ثلاثين عاما يتغنى بكأس الخلود كأس الموت،لأنه أدرك إدراكا وجوديا عميقا أن كل المخلوقات إلى فناء، وكل الأشياء إلى زوال. فمآل من خلق من طين إلى حفرة من تراب تلم عظامه ، يقول:

النـــاس فـــي غفـلاتـــهم ورحـــى المنـــية تطـــحن

ويقول أيضا:

كــل حــي عنـد ميـــتته حظــه من مـــاله الكــفن

ويردف قائلا:

بــين عيــني كل حـــــي عـلم الــموت يـــــلوح
نــح علــى نفسك يــا مس كيــن إن كنــت تـــنوح

يدعو الشاعر في هذه الأبيات إلى ترك ملذات الدنيا، وهجرة الحياة استعدادا للموت، لأن الإنسان سيسأل عن أفعاله ولذا يتحدث عن النشور والبعث والحساب، يقول:

فلــو أنا إذا متنا تركـــنا لكان الموت غاية كل حي
ولكنــا إذا متنــا بـعثنـــا ونسأل بعده عن كل شئ

يطيل أبو العتاهية في زهدياته الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان، إذ تحول من خلال هذا المسلك الشعري إلى ما يشبه الواعظ الذي يستمد عظاته من القرآن الكريم والحديث النبوي ووعظ الوعاظ". فهو لا يتوانى أن يدعو دعوات صريحة إلى التشبث بمكارم الأخلاق سعيا نحو التزهد لما له من مكانة جليلة في الدنيا والآخرة. يقول الإمام الغزالي: " اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل".

ويضيف أيضا: " إنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة...والزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفا من أن يأنس بها، فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله، ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره . أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة، وترك التمتع بالنسوان طمعا في الحور العين، وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في

زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له " أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا" .

طبعت موضوعات الزهد أسلوب الشاعر بطابع الوعظ الموجه للنفس البشرية إلى ما يصلح به حالها ، ويستقيم أوذها طلبا للفلاح في الدنيا والغنم في الآخرة. ولذلك نجده قد أكثر من التكرار والنداء والاستفهام والأمر، موظفا ألفاظا سهلة ومعاني شفافة تنفذ بانسياب إلى أعماق الروح بحكم بساطتها وميسمها الشعبي النابع من الوسط الاجتماعي العريض. وقد أمسى شعره بفعل هذه الخصائص والمميزات اتجاها فنيا قائم الذات، حريصا على تأسيس مدرسة شعبية يتداول شعرها العامة والخاصة. ومن أشعاره الزاهدة المرصعة بالأدعية والابتهالات ما يأتي:

سبحان من لا شئ يحجب علمه فالسر أجمع عنده إعلان
سبحان من هو لا يزال مسبحا أبدا وليس لغيره السبحان

وقوله:

إلهي لا تعذبني فإني مقر بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظني

يرى شوقي ضيف معلقا على شعر الزهد لدى الشاعر أبي العتاهية" أنه لم يكن يقترب من العامة بزهده وما صور فيه من بؤسها فحسب، بل وكان يقترب منها أيضا بأسلوبه المنبثق من لغة الحياة اليومية ؛ وهو أسلوب واضح مباشر يبتعد عن التصنع والحذق والغرابة والتعقيد. وقد سبق إلى هذا الحكم أبو فرج الأصفهاني لما قال : " الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس، ولا سيما الأشعار التي في الزهد، فإن الزهد ليس من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء....والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه" .

إن المنزع الشعبي الذي رامه أبو العتاهية عن طريق سهولة الألفاظ ولطافة المعاني وقرب التشابيه لم يحل دون ترابط أجزاء قصائده وتماسك مفاصلها، وانسياب كلامها الذي يجلي غم النفس وكربات الروح. ولا أدل على ذلك من رواج شعره وتغلغله في أوساط العصر العباسي حيث

أمسى أسلوبه الشعري اتجاها فنيا قائم الذات، بل إنه ساهم في تأسيس المدرسة الشعبية التي حرصت أن يكون شعرها متناولا لدى العامة والخاصة، لأنه يروق الأمراء والخلفاء، ويهبط إلى مدارج البسطاء.

وقد حمل مذهبه الشعري العديد من النقاد أمثال أبي الفرج الأصفهاني على القول:" كان أبو العتاهية غزير البحر، لطيف المعاني سهل الألفاظ، كثير الافتتان، قليل التكلف إلا أنه مع ذلك كثير الساقط المرذول". إضافة إلى قول الأصمعي: " شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى". وتعزى كثرة الساقط في أشعاره إلى الارتجال وفيض القريحة، وسرعة البديهة والقدرة على التحدث مع الناس شعرا،يقول الشاعر في قصيدة،في زوال الدنيا:

لدوا للموت وابنوا للخـــــــراب ... فكلكـم يصير إلـــى تبـــــاب

لمن نبني ونحن على تـــــــراب ... نصيـر كما خلقنـــا من تـــــراب

ألا يا موت لم أر منك بـــــــدا ... أتيت وما تحيـــــف وما تحـــابي

كأنك قد هجمت على مشيبـــــــي ... كما هجم المشيـب علـى شبابـــــي

ايا دنياي ما لـي لا أرانـــــــي ... أسومـك منـزلا إلا نبا بـــــــي

وإنك يا زمـان لذو صـــــــروف ... وإنـك يا زمـان لـذو انقـــــــلاب

فما لي لست أحلب منك شطـــــرا ... فاحمـد منك عاقبـــة الحـــــــلاب

وما لـــــي لا ألـح عليـــك إلا ... بعثـت الهـم لي من كـــل بـــــاب

أراك وإن طليـــت بكـــل وجـه ... كحلم النـوم أو طـــل السحـــــاب

أو الأمس الذي ولـــى ذهـابـــا ... وليس يعـود أو لمـخ السـراب

وهذا الخلق منـــك علـــى وفاة ... وأرجلـــهم جميـعا في الركـــاب

وموعد كل ذي عمـــل وســـعي ... بمـا أســـدى غـدا دار الثـــواب

تقلدت العظـام من الخطـايـــا ... كأني قد أمـنت مـن العقـــاب

ومهما دمـــت في الدنـيا حريـصا ... فإنـــي لا أوفـــق للصـــواب

سأسـأل عن أمـــور كنت فيها ... فما عـذري هنـاك وما جوابـــي

بأية حجة أحتـج يـوم الحسـاب ... إذا دعـيت إلـى الحســـاب

هما أمران يوضح عنهمـا لـي ... كتابـي حين أنظـر في كتـابـــي

فإما أن أخلـد في نعيـــم ... وإما أن أخلـــد فـي عـــذاب

تبدو القصيدة صرخة قوية ومدوية ضد العبثية التي تغلف الوجود والخراب الذي يحيط بالأجساد والنفوس، والزوال الذي يهدد مصائر كل مخلوق. فما الولادة – حسب أبي العتاهية – إلا للتشظي وما البنيان إلا للدمار وما الكينونة سوى جوهر من تراب، وما الموت إلا أخطبوط حتمي لا يظلم ولا يحابي، ولا تتوقف عجلته عن الدوران. فالدنيا غرارة زائلة، ومآل الزمان لا يستقر على حال، ومن سره حال ساءته أحوال. وما دامت نتائج الآخرة متعلقة بما يجترح في هذه الدار فلا داعية لتشبث الخلق بالسراب، سيما وأن ذنوب الخليقة عظيمة والتوفيق للصواب ضئيل والحساب يوم البعث عسير. فالشاعر " لا ينظر في شعره، ولا يضع مبادئ فلسفية، وإنما هو يترجم لنا الروح الشرقية المتشبثة بالدين، إذ يحتقر الحياة الدنيا، ويعظم الآخرة".

إن شعر أبي العتاهية يهتف إرشادا إلى سبل النجاح والفلاح، وهو يجنح إلى الوعظ في شاعرية تستمرئها النفوس، لأنهاتخفف عن الروح أعباء الوجود. ومن مظاهر تأثيره في نفسية السامع/ القارئ نقله إلى أجواء المقابر، ومراسيم الجنائز، وذكر أهوال القبور، وخلوات النفوس، عسى أن يتراجع الناس عن الانجرار وراء الأهواء والملذات. ويورد أبو العتاهية هذه الدلالات والمعاني بلفظ شجي وإيقاع لطيف ولغة بسيطة، وصور شعرية قريبة المنال، وتصوير تقريري شفاف ومباشر، وتخيل شعري لا يركب المناورة والتحليق، غير أن ما يطبع أسلوبه الشعري عموما هو الإفراط في توظيف التقابلات الضدية حيث يبرز " التقابل الأكبر" ممثلا في الدنيا والآخرة (الدنيا#الآخرة) و " الثنائيات الضدية الصغرى" التي تؤثث القيم المضمونية والتشكيلية للقصيدة (الولادة # الموت)، (البناء # الخراب)، (الظلم # المحاباة)، (الثواب # العقاب) (السؤال # الجواب)، (العذاب# النعيم). كما يتوسل في التعبير عن مشاعر الترغيب والترهيب باستعمال التكرار (تراب- موت – زمان – أراك- الحساب – أخلد)، ابتغاء ترسيخ مفهوم الفناء والزوال في نفسية المتلقي وإثارة إحساس الخوف من عذاب القبور. وتوخيا لإحراز نفس الغرض الشكلي سخر أسلوب الإشتقاق (بنو، بني، هجمت، هجم، أحلب، الحلاب..)

والملاحظ أن الناس قد أقبلوا على شعره، وتهافتوا على سماعه بفعل قرب مأخذه ولطف منطقه وبراءة لغته من البديع والتكلف. ومن أشعاره المعبرة عن هذا المنحى قوله :

وقد كنت أغدو إلى قصره... فقد صرت أغدو إلى قبره

أخ طالما سرني ذكره فقد صرت أشجى لدى ذكره

وكنت أراني غنيا به عن الناس لو مد في عمره

ومن هذه السهولة أيضا ما كتبه أبو العتاهية من قصائد تتصل فيها الأبيات اتصالا محكما يجعلها متساندة، وكأنها وأنت تقرأها كلام منثور تنطلق فيه النفس ويرتاح إليه اللسان، ومن ذلك قوله،

يا ذا الذي في الحب يلحى أما والله لــو كلفت منه كـــــما

كلفت من حب رخيم لـــــــما لمت عــلى الحب فذرني وما

ألقى، فإنـــي لست أدري بما بليت إلا أننـــــي بينـــــما

أنا بباب القصر في بعض ما أطوف فـــي قصرهم إذا رمى

قلبي غزال بسهام فـــــــما أخــطأ بهــا قلبي ولكنـــما

سهماه عينان له، كلـــــــما أراد قتلي بهما سلـــــــــما

ومهما يكن، فإن سمات التناقض قد طبعت أسلوب أبي العتاهية، لأنه حسب المسعودي" كان من أسهل الناس لفظا وأقدرهم على وزن الكلام، وكان حلو الألفاظ، حتى أنه يتكلم بالشعر في جميع حالاته، ويخاطب به جميع أصناف الناس". لكن بالرغم من بساطة أسلوبه ونزعته الشعبية، وعفويته في قول الشعر، فإن الخليفة المهدي قد أعجب بمديحه، وجعله قريبا من مجلسه، وأغدق عليه من جوائزه. ومن الشوائب التي مست جانبه الأخلاقي، حقا أو بهتانا، أنه " تعلق بجارية من جواري زوجة المهدي ، وهي عتبة، وكانت تزدريه كما ازدرته سعدى من قبل. ومضى لا يكف عن غزله بها ولا يرعوي. فعرفت مولاتها خبره وأثارتها عليه، فحدثت المهدي بشأنه، فغضب لتعرضه لحرمه وجواري قصره، وأمر بضربه وسجنه..ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبا صادقا إنما كان يريد الشهرة في الأوساط الأدبية بذكرها". أما لقبه أبو العتاهية، فقد أطلق عليه من قبل الخليفة المهدي لما قال له إنك إنسان معته، فغلب هذا اللقب على اسمه لأنه كلف بجارية اسمها عتبة وظل يلهج بذكرها.

4) أبو الطيب المتنبي رائد الشعر الحكمي

اشتهر أبو الطيب المتنبي بالشعر الحكمي سيرا على منوال شعر زهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد والنابغة الذبياني، توخيا لتقرير الأفكار وإبانة المعاني. ولذلك، فقد تضمن شعره الصور البيانية الحسية القريبة من الأفهام ملتزما الطبع في النظم والرصانة في الكلام غير بعيد عن التصوير التقليدي في التعبير والديباجة. " ومن حسنات شعره دقة الإشارة وحسن التخلص وحسن اختراع المعاني، ووصف القتال وأدواته، وحسن ضرب المثل".

ولقد ذهب ابن الأثير في الحكم على شعره قائلا: "إنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا، فطريقه في ذلك تضل بسالكه، وتقوم بعذر تاركه". ويشير ابن رشد في معرض حديثه عن وصف الحروب والأحداث وهو بصدد ترجمة كتاب فن الشعر لأرسطو أن المتنبي أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخيل وذلك كثير في أشعاره، ولذلك يحكى عنه أنه كان لا يريد أن يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة".

إن عيش المتنبي إلى جانب سيف الدولة ومرافقته له في غزواته، جعله يرتبط بالخيل ولذلك وصفه في غير موقع من شعره. وقد فاضت قصائده بنعوت كثيرة وصفات حية ومتدفقة خص بها الحصان والفرس والخيل. ولم يكن هذا الوصف شكليا خارجيا بل جاء كلامه فيه كشرط سيكولوجي وجمالي وحضاري أملته الشروط التاريخية للعصر الذي عاشه المتنبي. والملاحظ أن الخيل قد تحضر في مديحه وهو متمرس بدقائقها وتفاصيلها وصفاتها، وبما أن الخيل أصيلة بجمال شكلها، فإنها تدل لا محالة على أصالة وفروسية واصفها.

ومما أثاره النقاد حول شعره، أنه ينقسم في صياغته إلى طورين؛ يكثر في أولهما التعقيد اللفظي والمعنوي سيرا على نهج أبي تمام صاحب الصنعة والبديع والإغراب والتنقيب عن الوحشي من الألفاظ، بينما يضج شعره في الطور الثاني بالسلاسة والليونة والانسياب في الإيقاع والخلو من الغموض والاستيهام ، " إذ تعد كافورياته من جلال المعنى وجمال الصياغة، وشاهدة على بلوغ شعره كمال النضج".

وهذا ما يستشف من خلال ميميته التي يمدح بها كافورا الإخشيدي، التي يقول فيها:

فراق ومن فـــــــارقت غير مذمم وأم ومـــــن يـممت خيـــر ميـــمم
وما منزل اللـــذات عنـــــدي بمنزل إذا لم أبـــجل عنـــــده وأكـــــــرم
ومن مثل كافور إذا الخيل أحـــجمت وكـــان قليل من يقـــول لها أقدمـــي
أبا المسك أرجو منك نصرا على العدى وآمـل عزا يخضب البيض بالـــدم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوهـا بقلب المشـوف المستهـام المتيـــم

تطفح هذه القصيدة بأبهى مظاهر المدح الذي يتوجه به المتنبي لممدوحه كافورا وقد أثنى عليه ورفع من قدره ، وأحاطه بهالة من التعظيم والتفخيم، وإذا كان هذا النص حسب أنيس المقدسي من أسلس قصائده، وأملإها معنى، وأجملها إيقاعا فإن قصيدته المعنونة في الديوان " من أية الطرق" لدليل فاقع على تحول الشاعر من غرض المدح إلى غرض الهجاء، يقول:

من أيـــة الطرق يأتـــي مثلك الكرم أين المحـــاجم يا كافـــور والجلـــم
جاز الألى ملـــكت كفـــاك قدرهم فعـرفوا بك أن الكـلب فوقـــــــهم
لا شئ أقبـــح من فـحل له ذكـر تقـــوده أمـــة ليست لها رحـــــم
ســـادات كل أناس من نفوســـهم وسادات المسلـمين الأعبـد الـقزم
أغاية الدين أن تحفوا شواربـــكم يا أمة ضحكت من جهلـــها الأمم
مـــا أقدر الله أن يخزي خلـــيقتـــه ولا يصدق قومـــا في الذي زعموا

أبدى الشاعر في هذه القصيدة عدم رضاه في التوجه إلى كافور لأنه يكره في قرارة نفسه مدح مثل هذا الرجل الذي يتحدر من سلالة العبيد. وهو يصرح أن عدم رضاه بممدوحه قد قاده إلى هجوه سرا، ومدحه ظاهرا، الأمر الذي بلغ به إلى احتقاره والتهكم منه لما كان عبدا متصفا بالبداوة والغلظة حيث آثار الشقاء والفقر بادية على ملامح جسده ومنها عريه وشقوق كعبه، فأنى بشاعر عملاق مثل المتنبي أن يمدح رجلا مثل كافور، يقول:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيـا

تظن ابتساماتي رجاء وغبطـــــة ومـــا أنا إلا ضـاحك من رجائيـــا

وتعجبني رجـلاك في النعل، إننـي رأيتك ذا نعـل إذا كنت حـافيـــا

وإنك لا تـدري ألـــونك أســـود من الجهل أم قد صـار أبيض صافيا

ويذكـــرني تخييط كـعبك شقـــه ومشيك فـــي ثوب من الزيت عاريـا

ولولا فضول النـــاس جئتك مادحا بمـا كنت في سـري به لك هاجيـا

يتضح من خلال هذه الأبيات الشعرية وغيرها أن المتنبي قد أبدع وأجاد الإبداع في كل الأغراض الشعرية سالكا مسالك تنسجم وقواعد الشعر الأربع: وهي " الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء، والتوعد والعتاب الموجع".

إن قدرة المتنبي على التنقل بين الأغراض تشهد له بالعبقرية في صوغ المعاني، والتوسع في مكتسبات المعجم اللغوي مع إظهار كفاءة نادرة في الانتقال من شعر القريحة والغرابة والتخييل، إلى شعر الرشاقة واليسر والسلاسة وهي الحقائق الأدبية التي تنطق بها مختلف قصائده التي ضمنها كثيرا من الحكم الخالدة المرتبطة بحياته الشخصية في علاقة بالمقامات والمنازل التي عايشها بين الأعيان والأمراء والخلفاء والعلماء والشعراء، غير أنها جميعها صادرة عن "نزعته الفطرية" الميالة إلى التعالي والمجد والقوة المغموسة في الحسرة والمرارة.

لم يجار المتنبي أبا تمام، بل تمرد ضد صياغته ومنحاه في القريض، ليصبح أحد الشعراء الذين احتذوا نهج المحافظة على المرتكزات ومعايير عمود الشعر الذي حدد المرزوقي مبادئه. وقد اعتبر المتنبي السير على منوال الشعراء الجاهليين ميزة فنية لبناء القصيدة العربية إبان العصر العباسي. ومن مظاهر التقليد لديه أن قرض في المدح والهجاء

والفخر بعيدا عن الإبهام والغموض وارتياد المعاني الملغزة. لا سيما وأنه قد استند إلى شعر الحكم قصد تقرير آرائه الفكرية المستمدة من ثقافته الفلسفية الموسوعية. الأمر الذي أهله لكي " يعد من زمرة الشعراء الفلاسفة المتأملين والمفكرين المبدعين. على أن من النقاد – شوقي ضيف مثلا- من يرى أن المتنبي " لم يكن فيلسوفا وإنما كان مثقفا بالثقافة الفلسفية التي عاصرته، يستعير حكمها وأفكارها ويصوغها في قوالب شعرية حتى تروق المثقفين من حوله".

يقول أبو الطيب المتنبي في قصيدة واحر قلباه(النموذج):

واحـر قلبـاه ممن قلبـــه شبـــــم ... ومـن بجسمـي وحالـي عنـده سقـم
مالـي أكتم حبا قد بـرى جســـدي ... وتدعـي حب سيـف الدولـة الأمـــم
إن كـان يجمـعـــنا حب لغرتـــه ... فليت أنـا بقـدر الحـب نقـتســـم
قد زرتـــه وسيوف الهند مغمـــدة ... وقد نظـرت إليـه والسيـــوف دم
فكـــان أحسـن خلـق اللـه كلـــهم ... وكان أحسـن مـا في الأحسن الشيـم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنـعت ... لك المهـابة مـــا لا تصنـع البهـــم
أكلمـــا رمـــت جيشـا فانثنـى هربـــا ... تصرفت بـــك في آثـــاره الهـمـــم
عليـــك هزمـــهم في كـــل معتـــرك ... وما عليـك بهـم عـار إذا انهـزمـوا
يا أعـدل النـاس إلا فـي معامـــلتـــي ... فيك الخصـــــام وأنتم الخصم والحكم
سيعلـــم الجمـع ممـن ضم مجلسنـا ... بأننـــي خيـــر من تسعـى به قـــدم
أنا الذي نظـر الأعمى إلـى أدبـــي ... وأسمـعت كلمـاتي مـن بـــه صـمـم
أنـــام ملء جفـوني عن شـواردها ... ويســـهر الخلـق جـراها ويختصـم
وجـــاهل مـــده في جهلـه ضحـكي ... حتى أتـــته يـــد فـــراسـة وفـــم
إذا رأيـت نيـوب الليـث بـــارزة ... فلا تظـنـن أن الليـث يبتـســـم
الخـيل والليـــل والبيداء تعرفـني ... والسـيف والرمـــح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحـش منفـــردا ... حتـى تعجـب مـني القـور والأكـم
يـا من يعـزعلينـــا أن نفـــارقـــهم ... وجدانـنا كـل شيء بعـدكم عـــدم
إن كـان سـركم مـا قال حاسدنـــا ... فمـا لجـرح إذا أرضـاكم ألـــم
كم تطلبـــون لنا عيبـــا فيعجـــزكم ... ويكـره الله مـا تأتـون والكـــرم
مـا أبعد العيـب والنقصـان من شرفي ... أنا الثريـا وذان الشيـب والهـــرم
إذا تـرحلـت عن قـوم وقد قـدروا ... أن لا تفـارقهم فالـــراحلون هـــم
شـر البلاد مكـان لا صـديق بـــه ... وشـــر ما يكسـب الإنسـان ما يصـم
بـأي لفـظ تقـول الشعـر زعـنفـة ... تجـوز عنـدك لا عـرب ولا عـجـــم
هـــذا عتابـــك إلا أنـه مقـة ... قـد ضمـن الـدر إلا أنـــه كلـــم

الجاحظ أو القامة العلمية الاستثنائية

ـ التعريف بالجاحظ:

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة حوالي سنة (159هـ) في وسط اتسم بالفقر والوضاعة، وينتسب إلى قبيلة كنانة بالنسب، وعلى الأرجح بالولاء، ولذا اختلف الناس بشأن نسبه؛ فمن قائل بانحداره من أصول إفريقية، ومن قائل بأنه عربي صرف لانتمائه إلى ليث بن بكر بن كنانة. ولقب بالجاحظ أو الحدقي وهما صفتان تنمان عن القبح والدمامة اللذين اشتهر بهما هذا الأديب الكبير. ومهما يكن، فقد كان هذا اللقب علامة على عبقرية فكرية وأدبية فذة ونادرة لم يجد الزمان بمثلها ثانية على مر العصور. وحينما نصف أي كاتب بجاحظ زمانه فذلك يعني أنه اقترب من مبلغ الكمال في الفكر والكتابة والعلم. عاش يتيما، طالبا لقوت يومه بيده، لكنه حذق القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وظل ينهل من بطون الكتب، ويحضر مجالس الأدب وحلقات الدروس العلمية. "يذكر صاحب الفهرست (ابن النديم)، أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر. ويقول أبو هفان: "لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان... وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم بذهنه، ويظل في ذاكرته آمادا طويلة"[1]. يساهم في المناقشات الدائرة بين أدباء وعلماء عصره. وكان هذا الحضور كافيا لكي ترتسم قامته طويلة داخل الأوساط الأدبية لعصره. ولا أدل على هذا الطرح من ذيوع صيته في سوق المريد بالبصرة الذي كان يرتاده علماء اللغة والشعراء والأدباء من كل حدب وصوب. ويروى أنه تضايق بالبصرة، فخرج قاصدا إلى بغداد، فاتصل بأشهر علمائها وأعيانها، ونال حظوة التقدير لما توفر لديه من أدب كثير وعلم غزير. وبالرغم من نبوغه يبدو "أنه كان يلقى كثيرا من الإهمال في أول أمره حتى كان يضطر حين يؤلف كتابا أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتابي، أو سلم صاحب بيت الحكمة حينئذ كان الكتاب يروج، ويأتي الناس للرواية عنه"[2].

[1]ـ شوقي ضيف، مرجع سابق، ص589.
[2]ـ نفسه، ص590.

ترك الجاحظ عددا ضخما من المؤلفات بلغت فيما يروى إلى خمسين وثلاث مائة كتابا ورسالة. ضاع البعض منها، ولم يحقق البعض الآخر، وطبع المهم منها. وتداولت هذه المؤلفات معظم معارف عصره من فن وفكر وأدب وأخلاق وعلوم وفلسفة ودين وسياسة واجتماع. ومن أشهر آثاره كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب البخلاء، ورسائل الجاحظ. لم يقلد من سبقوه في الكتابة النثرية، وإنما سلك في أسلوبه الإنشائي طريقا مغايرا سمي بالمذهب البياني، جامعا بين الكثرة في التأليف، والإجادة في التعبير. وبما أنه نشأ في بيئة متنوعة خصبة من حيث المعارف والعلوم، فإنه بات يخالط ويجرب ويراقب ويسبر أغوار الطبائع والنفوس، الشيء الذي أكسبه وعيا حادا بأشكال الجد والمرح في الحياة، مستمدا مادته من الواقع الاجتماعي، وأخبار النوكى والشطار، وحكايات العلية والسفلة، وأساطير العجائز. ويلاحظ من آثاره أنه جعل الأدب العربي مرتبطا كله بالحياة الاجتماعية لأنه لم يترك موضوعا عاما أو خاصا من موضوعات الحياة لم يتطرق إليه. وهذا ما يفسره موسوعيته في تصوير نماذج إنسانية مختلفة، نافذا إلى بواطن طباعها، راسما مسارات ميولها ونزوعها. ولعلها الخصائص التي يطفح بها كتاب "البخلاء" الذي يعد من أشهر كتب الجاحظ.

قصة الكندي

أبو عثمان عمرو الجاحظ

قال معبد(1): نزلنا دار الكندي أكثر من سنة، نروج له الكراء، ونقضي له الحوائج، ونفي له بالشرط. قلت: قد فهمت ترويج الكراء، وقضاء الحوائج، فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة، وبعر الشاة، ونشاور(2) العلوفة، وألا يلقوا عظما، ولا يخرجوا كساحة(3) ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته، وكان في ذلك يتنزل(4) عليهم، فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينا أنا كذلك، إذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له، وإذا رقعة منه قد جاءتني، " إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة، يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة" فكتبت إليه: " ليس مقامهما عندنا إلا شهرا أو نحوه" ، فكتب إلي " إن دارك بثلاثين درهما، وأنتم ستة، لكل رأس خمسة، فإذ قد زدت رجلين فلا بد من زيادة خمستين، فالدار عليك من يومك بأربعين " فكتبت إليه: وما يضرك من مقامهما؟ وثقل أبدانهما على الارض التي تحمل الجبال، وثقل مؤونتهما (5) علي دونك، فاكتب إلي بعذرك لأعرفه. ولم أدر أني أهجم على ما هجمت، وأني أقع منه فيما وقعت.

فكتب إلي: " الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، وهي معروفة قائمة من ذلك سرعة امتلاء البالوعة(6) وما في تنقيتها من شدة المؤنة، ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت كثر المشي على ظهور السطوح المطينة(7) وعلى أرض البيوت المجصصة والصعود على الدرج الكثيرة فينقشر لذلك الطين، وينكسر العتب(8) مع انثناء الأجداع لكثرة الوطء، وتكسرها لفرط الثقل.

وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال، تهشمت الأبواب، وتقلعت الرزات(10) ، وإذا كثر الصبيان، وتضاعف البوش(11) نزعت مسامير الأبواب، وقلعت كل ضبة(12) ونزعت كل رزة، وكسرت كل حوزة، وحفر فيها آبار الزدو(13)، وهشموا بلاطها بالمداحي(14) هذا مع تخريب الحيطان بالوتاد وخشب الرفوف.

وإذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء احتيج من صب الماء واتخاذ الحببة(15) القاطرة، والجرار الراشحة(16)، إلى أضعاف ما كانوا عليه، فكم من حائط قد تأكل أسفله، وتناثر أعلاه، واسترخى أساسه، وتداعى بنيانه، من قطر حب، ورشح جرة، ومن فضل ماء البئر، ومن سوء التدبير. وعلى قدر كثرتهم يحتاجون إلى الخبيز والطبيخ، ومن الوقود والتسخين، والنار لاتبقي ولا تذر، وإنما الدور حطب لها وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها، فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة، فكلفتم أهلها أغلظ النفقة، وربما كان ذلك عند غاية العسرة، وشدة الحال، وربما تعدت تلك الجناية إلى دور الجيران، وإلى مجاورة الأبدان والأموال، فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبته، لكان عسى ذلك أن يكون محتملا. ولكنهم يتشاءمون به، ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لائمته وتعنيفه.

نعم،ثم يتخذون المطابخ في العلالي(17) على ظهور السطوح، وإن كان في أرض الدار فضل وفي صحنها متسع، مع ما في ذلك من الخطار بالأنفس، والتغرير(18) بالأموال، وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد، وهجومهم، مع ذلك، على سر مكتوم، وخبيء مستور: من ضيف مستخف، ورب متوار، ومن شراب مكروه، ومن كتاب متهم، ومن مال جم أريد دفنه، فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه. ومن حالات كثيرة وأمور لا يحب الناس أن يعرفوا بها، ثم لا ينصبون التنانير(19)، ولا يمكنون للقدور إلا على متن السطح، حيث لا بينها وبين القصب والخشب إلا الطين الرقيق والشيء لا يقي. هذا مع خفة المؤونة في إحكامها وأمن القلوب من المتالف بسببها. فإن كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم وأنتم ذاكرون، فهذا عجب، وإن كنتم لم تحلفوا بما عليكم في أموالنا ونسيتم ما عليكم في أموالكم، فهذا أعجب."

هوامش لغوية

1)كان معبد هذا من علماء الكلام في عهده، و كان ينزل بدار الكندي

2)نشوار العلوفة ما تبقيه الدابة من علوفها بعد العلف، و هو كلمة معربة فيما يظهر عن الفارسية.

3)الكناسة من الأزبال، و الكسح و الكنس بمعنى واحد.

4)يتنزل عليهم، أي يفرض عليهم ما شاء من استخلاص المنافع دون مقابل بحيلة ودهاء.

5)المؤونة: القوت. و المؤنة الشدة و الشقل.

6) البالوعة هذا ما يقابل "المطمورة" التي يترسب فيها ما يجري في الدار من ماء و فضلات.

7)المطينة: المطلية بالطين.

8) العتب جمع عتب، أسكفة الباب التي توطأ قبل الدخول. و هي هنا ما يمسك حرف الدرج من الخشب لأنها موطأ القدم في كل درجة.

9) الأجذاع، جمع جذع و المقصود جذوع الشجر التي كانت عمدا للبناء و السقوف.

10) الرزات ، جمع رزة و هي الحديدة التي يدخل فيها القفل.

11) البوش بفتح الباء و ضمها جماعات الناس من شتى القبائل ، و العيال و الأطفال مجتمعون.

12) الضبة، الحديدة توضع على لوحة الخشب في الباب لتمسك أجزاءه أو تقويه. و منهم من يسمي المزلاج في الباب ضبة.

13) المقصود بها الحفائر التي يحفرها الأطفال للعبة كانت معروفة بلعبة "الزدو" يحفرون حفرة ثم يخفون شيئا فيها و يسألون عنه أين يوجد.

14) خشبات كانت ترمى على الأرض من ألعاب الأطفال يضربو بها الأشياء على الأرض، فلا تمر الخشبة على شيء أمامها إلا جرفته.

15) الحببة، جمع حب بالضم. خابية أو جرة كبيرة للماء و غيره.

16) الراشحة التي يرشح منها الماء.

17) العلالي، جمع علية بالكسر و الضم، غرفة في السطح أو مطلق غرفة.

18) التغرير، التعريض للخطر أو الهلاك المحقق.

19) التنانير، جمع تنور. الكانون أو بيت النار، و أراد به هنا منصب توضع عليه القدر و تحته تشعل النيران.

يصور كتاب "البخلاء" طائفة من "البخلاء" كما عاينهم بنفسه أو حكى له الناس عنهم، فهو إذن قد سرد في هذا المؤلف نوادر وطرائف وأخبار وقصص راجت بين ثلة من البخلاء يزعمون حنكتهم في لاقتصاد وتدبير الأموال. ولم يقتصر الكتاب على ذكر البخل والبخلاء، بل اهتم بتسجيل صور ومشاهد من قرى الضيوف عند العرب، متوقفا عند أصناف من الأطعمة وأشكال من

الأشربة السائدة في عصره، ليصبح هذا الكتاب منحى من مناحي تصوير قصص أشهر البخلاء مثل: قصة ليلى الناعطية، وقصة أحمد بن خلف، وقصة الحارثي، وقصة الكندي، وقصة تمام بن جعفر.. وحكايات غيرهم في البخل والشح والاقتصاد المقتر، ورشح "البخلاء" برسائل في البخل أيضا، ومنها رسالة "سهل بن هارون" مع رد الجاحظ عليها، ورسالة أبي العاص بن عبد الوهاب الثقفي المخصصة للذود عن مكارم الجود، وذم البخل والتقتير.

لا جدل أن التأليف في البخل كان محاطا بالشرط التاريخي لعصر الجاحظ، فالأحوال الفكرية والسياسية والاجتماعية قد وجهت الكاتب إلى تناول موضوع البخل ومنها مهاجمة الشعوبيين لسخاء العرب وكرمهم وتهورهم في التبذير وإضاعة المال، إذ في نظرهم، لا يستقيم مثل هذا الكرم مع الجدب وشيوع الفقر وضنك العيش... وهي بدون شك شؤون لا تسعف على الكرم ولا تيسر سبله. ومن جهة أخرى كان الصراع السياسي والعصبية القبلية حافزا من حوافز إثارة موضوعة البخل والكرم، ويذكر أن أخبارا وحكايات قد اثرت في هذا العصر، تؤيد هذا أو تعارض ذاك. يضاف إلى ذلك أن خلفاء الدولة العباسية الناشئة سعوا إلى محو صورة البذخ والإفراط في البذل والسخاء العالقة في أذهان الناس على عهد الدولة الأموية. وهكذا نشب الخلاف بين مؤيدي البخل ومناصري الكرم. فالبخلاء يزدادون بالترويج للبخل ثقة وثباتا، والكرام يفاخرون ببذلهم وعطائهم متندرين بصفات المقترين. وليس غريبا أن يكون عصر الجاحظ عصر تنافس في جمع المال والتطلع إلى الغنى. ولذا، كانت غاية شرائح من الناس الحرص على المال والتفنن في حسن تدبيره. وهي الصفات التي يعكسها كتاب "البخلاء"، وقد سبقه للكتابة في هذا الصنف الأصمعي وأبي عبيدة وسهل بن هارون. لكن هؤلاء تحدثوا عن هذا الموضوع بلغة الإخبار والتقرير، بينما بسطه الجاحظ في لون من الهزء في الحكي والتصوير. ولذلك تراه يقول: "وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستلد النفوس وتستفرغ المجهود. وللصبر غاية، وللاحتمال نهاية. ولاباس أن يكون الكتاب موشحا ببعض الهزل1.

[1]- رسالة في النساء. مجموعة رسائل الجاحظ. عن شوقي ضيف، مرجع سابق، ص593

أما عن بواعث تأليف كتاب البخلاء، فيقول مخاطبا من طلب منه تناول موضوع البخل على سبيل الحقيقة أو التخييل، "قلت: اذكر لي نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما. فإن للجد كدا يمنع من معاودته، ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته، وذكرت ملح الخرامي1، واحتجاج الكندي2، ورسالة ابن هارون3، وكلام ابن غزوان4، وخطبة الحارثي5، وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم. ولم يمسوا البخل إصلاحا، والشح اقتصادا... ولم جعلوا الجود سرفا، والإيثار جهلا، ولم زهدوا في الحمد، وقل احتفالهم بالذم. وقلتَ: فبين لي الشيء الذي خبل عقولهم وأفسد أذهانهم"6.

ندرك من هذا المقتطف الوارد في مقدمة كتاب البخلاء، أن الجاحظ استجاب لمن طلب منه الكتابة عن طرائف البخلاء ودفاعهم عن صفة البخل. وقد جاء هذا الكتاب مليئا بالأقاصيص المرحة الساخرة من الأشحاء في عصره. ولم يقصر الهزل على مؤلف "البخلاء" فقط، وإنما شيد رسالة التربيع والتدوير على الهزء القاتم من كاتب يسمى "أحمد بن عبيد الوهاب" المثير للسخرية بسبب بدانته وقصر قامته. وغدا الجاحظ يصف هذا الكاتب في رسالته وصفا مضحكا، ثم حوله إلى دراسة واسعة في الجمال، مستفسرا عن معنى الجمال هل يكون في القصر أو في الطول أو في النحافة أو في الامتلاء أو في التربيع والتدوير؛ وهي رسالة تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة، وبالسخرية تارة أخرى، وفيها يقول مدافعا عن المزاح: "ولو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في كل مقال.. لكان السفه الصراح خيرا لهم. والباطل محضا أرد عليهم.. ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه"7.

ونجد الجاحظ قد استهل كتاب "البخلاء" بذكر رسالة "سهل بن هارون" المبعوثة إلى بني عمه الذين عاتبوه بسبب بخله وما ورد عنه في كتاباته. فرد عليهم محتجا ومدققا في كل جزئية من الجزئيات المذكورة، داحضا مزاعمهم، لينتقل بعد ذلك إلى بسط أخبار بخلاء البصرة، وبعض

---

[1]- الخزامي: هو أبو محمد عبد الله بن كاسب أحد بخلاء الجاحظ.
[2]- الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف العربي المشهور وكان مرميا بالبخل.
[3]- سهل بن هارون: عمرو سهل بن هارون أحد الكتاب البلغاء الذين عاصروا الجاحظ وله كتاب في البخل.
[4]- ابن غزوان ممن ذكره الجاحظ في بخلائه.
[5]- ممن ذكره الجاحظ في بخلائه.
[6]- أبو عثمان عمرو الجاحظ: البخلاء (المقدمة). مؤسسة علاء الدين. الطبعة 1، 2002.
[7]- شوقي ضيف، مرجع سابق، ص593.

النساء اللواتي عرفن بالشح والتقتير، معرجا على حكايات مختلفة ترتبط بأشخاص ضرب بهم المثل في البخل والإفراط في الاقتصاد ومنهم: خالد بن عبد الله القسري، وخالد بن يزيد بن جعفر، وابن أبي المؤمل، والثوري، والحارثي، وأحمد بن خلف، وابن إسحاق الكندي.

تعد قصة الكندي من أشهر وأورع قصص البخل الواردة في كتاب الحيوان، ومرد ذلك لاعتبارين اثنين أولهما رجحان ارتباطها بفيلسوف ذائع الصيت، وثانيهما لروعة المناولة في الأسلوب والتحليل. وقد تحدث فيها الجاحظ بلسان الكندي تارة، وبما تناقله الآخرون عنه من أخبار تارة ثانية. وتمحورت هذه القصة حول موضوع مركزي هو إكراء الدور ومشاكل الكراء وقلاقل المكترين. "قال معبد، نزلنا دار الكندي أكثر من سنة نروح له الكراء ونقضي له الحوائج، ونفي له بالشرط"[1]. مما يفيد أن الكندي كان ممن يمتلكون بيوتا للكراء لكنه، حسب ما ورد في القصة تعرض لمتاعب واستفزازات المكترين، متأذيا من سلوكاتهم الشائنة، وإهمالهم للبيوت المكتراة. وقد صور الجاحظ هذه المعاناة في حوار درامي ممتع يدور بين الكندي وبين مكتريه. وهو حوار يوهم القارئ بواقعية تفاصيل الأحداث الجارية والتصادمات القائمة بين الكاري والمكتري بصدد عدد من الجزئيات المتعلقة بنمط الكراء وشروطه. وقد تم تصوير هذه القصة بأسلوب فني، وفكر تحليلي، ونقد ساخر مجليا وقائع الكراء، والأحوال النفسية للكاري والمكتري، وهو ما يبرهن على أن هذه القصة ليست رهينة بملابسات إنتاجها في العصر العباسي، بل تتجاوز شرطها البيئي والاجتماعي لتكسب الشكل القصصي الخاص بالبخل قيمة أدبية غنية بالخصائص الفنية من استطراد، وكلمة بليغة، ومحاورات بارعة، وتصوير خلاق لنفسية البخيل، ومزج بين الجد والهزل، والطرافة والواقعية، وعلاوة على قدرتها الواضحة في تشخيص العيوب، وتقويم الأخلاق والحذق قي البيان والمهارة في النفاذ إلى أعماق الشخصيات، وإتقان أساليب توليد الكلام. أما كونها وثيقة تاريخية، فلأنها تتصل بالمجتمع العربي في ذلك العصر حيث تعكس كيفية بناء الدور، وأسلوب تأثيثها، وشروط التعامل في الكراء مع ما لهذه الأمور جميعها من اتصال بالجوانب الحضارية للإنسان على عهد الجاحظ.

وتعزى قيمة كتاب البخلاء عموما لاتجاه الأدب لأول مرة إلى مطارحة تأصيل الحياة اليومية واستجلاء البواطن السيكولوجية لأشخاص أحياء في حلة سردية قصصية تصويرية تجمع

[1]- أبو عثمان عمرو الجاحظ: البخلاء، مرجع سابق، ص102.

بين القتامة والدعابة، والجد والهزل، والمتعة والتسلية. مما يشي بأن الجاحظ هو أول من سلك طريق الاتجاه القصصي الواقعي في الأدب العربي. ولهذا عد الجاحظ أعظم كتاب العصر العباسي لما اكتنزته كتبه ورسائله من وضوح في المنطق، وقوة في الاستدلال، وقدرة فائقة على توليد المعاني، الشيء الذي حدا بابن العميد إلى قول عبارته المأثورة "إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا".

ومن خصائص كتابة الجاحظ ومميزاتها صياغته الإبداعية، وعنايته بالأسلوب، وملاءمة ألفاظه لمعانيها وموضوعاتها ومتلقيها. وهو دائم الحرص على سريان التفكه والدعابة في ما أثر عنه من خبر، وشعر، ونادرة، أو فكرة كلامية، ولذلك انفرد عن معاصريه من الأدباء بأن خص أدبه بمسحة واقعية تصور أحوال المجتمع بما يزخر به من تناقضات في الأخلاق والعادات ترتبط بالأسياد والعبيد، والنساء والقيان. وكذا ما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومكدين، وبطبقاته الوسطى من تجار وموظفين وعلماء وشعراء، وبطبقاته العليا من خلفاء وأمراء ووزراء ورؤساء وقضاة وقواد، آخذا في الوصف والسرد والتصوير، عارضا ما في البصرة، وبغداد، وسامراء، من صور الحياة في ترفها المفرط، وبؤسها المفجع. ولم يكن كتاب "البخلاء" عموما، "مجرد حكايات ونوادر تفرح النفس، بل هو غوص في أعماق النفس البشرية، بحثا عن كوامنها الغامضة، ومحاولة من الجاحظ لتحليل هذا النوع من السلوك الإنساني"[1].

والواقع أن الجاحظ، دائم الاحتفاء بألفاظه ومعانيه، إذ "لكل لفظة موضعها من الكلام، ومن المعنى الذي تؤديه" مشددا، كما ورد في البيان والتبيين، على تلاؤم اللفظ والمعنى، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، معربا عن رأيه أن يكون الأسلوب وسطا بين لغة العامة ولغة النخبة. وأحسن الكلام عنده ما يغنيك قليله عن كثيره، وأجمله ما يصنع في القلوب صنيع العيث في التربة الكريمة[2]. بهذا الأسلوب ألف الجاحظ كتبه ورسائله حيث طاوعته الألفاظ، وانسابت له المعاني فراقت لغته الآذان، واستمرأت معاينه وأفكاره العقول.

[1]- أبو عثمان عمرو الجاحظ، البخلاء، مرجع سابق، ط1، 2002.
[2]- أبو عثمان عمرو الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية. ج1، ص83.